أبـــو تمـــام ناقـــداً

أ. م. ماجد عبد الحميد الكعبي
كلية الاداب – جامعة البصرة

توطئـــــة :

عرف ابو تمام شاعراً مبدعاً ذا طريقة شعرية متميزة ، فقد اهـتم الدارسـون ، القدماء والمحدثون بشعره وقيمته اهتماماً كبيراً ، وقد قيل في قيمته وبراعته واسلوبه شيئاً كثيراً ، وكان شعره مثار نقاش وبحث من لدن النقاد في حياته وبعد مماته ولم يختلفوا في شعر شاعر كما اختلفوا في طريقة واسلوب شعره ، مع مراعـاة للجانـب الاخـر مـن شخصية ابي تمام الادبية والتي تتمثل بآرائه المبثوثة في الكتب والمضان واختياراته الستة المشهورة والتي من خلالها يتبين ان ابا تمام قد وظف جلّ ذوقه الفني والنقدي فيها .

لقد نالت اختياراته – ولاسيما ديوان الحماسة – شهرة كبيرة في عـصره وفـي العصور اللاحقة ، لكن ديوان الحماسة برز من بين تلك الاختيارات ليكون شاخصاً ودليلاً على تمتع ابي تمام بالحس النقدي والذوق الفني الكبيرين ، لذلك ارتأيت ان ابحـث فـي ديوان الحماسة للكشف عن هذا الحس النقدي من خلال اختياراته ، فقد قيل (ان ابا تمـام في اختياره اشعر منه في شعره) وقد قال المرزوقي : (ان الشعراء السابقين لو قدّر لهم ان يشاهدوا صنيع ابي تمام بأشعارهم لوافقوه على هذا الصنيع) .. وصنيع ابي تمام في

اشعار الشعراء كان يتمثل بتغييرات كثيرة ادخلها على اشعارهم فقد كان (ينتهي الى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ويبدل الكلمة باختها من نقده) لذلك سنتبين من خلال هذا البحث كل الممارسات والمعايير النقدية والذوق الفني الرفيع الذي استخدمه ابو تمام في اختياراته والذي يبرهن ان ابا تمام كان ناقداً بارعاً فضلاً عن كونه شاعراً مفلقاً ...

بواعث الاختيارات لدى ابي تمام :

لو حاولنا ان نبحث عن البداية الاولى لظهور الاختيارات الشعرية في الادب العربي لوجدنا ان اول ما وصل الينا منها كتاب " المفضليات " الذي جمعه المفضل الضبي (ت ١٧٨ هـ) وهي قصائد طويلة من روائع الشعر العربي القديم ، ولم تكن القصائد مرتبة حسب الاغراض او مصنفة ضمن ابواب معينة ، ويبدو ان المفضل قد جمعها من الرواة ولم يخترها من مجاميع شعرية مروية او مدونة ، لذلك يتبين ان الهدف من جمعها كان للحفاظ على هذه الروائع من الضياع والاندثار او لاغراض تعليمية ، وقد تلت المفضليات ، اختيارات اخرى مثل " الاصمعيات " لابي سعيد عبد الملك بن قريب الاصمعي (ت ٢١٦ هـ) و " جمهرة اشعار العرب " لابي زيد القرشي (من رجال القرن الرابع الهجري) .

اما فيما يخص البواعث التي دفعت ابا تمام لاختياراته الكثيرة ، فان كتب التراث تنقل لنا رواية مفادها ان ابا تمام (كان قد قصد عبد الله بن طاهر بخراسان فمدحه واثابه ، ثم عاد من خراسان يريد العراق ، فلما كان بهمذان ، اغتنمه ابو الوفاء بن سلمة ، فانزله واكرمه فاصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم ، قطع الطريق ومنع السابلة ، فغم ذلك ابا تمام ، على حين سر مضيفه ابو الوفاء ، فقال لابي تمام : وطن نفسك على هذا المقام

، فان الثلج لا ينحسر الا بعد زمن ، واحضره خزانة كتب فطالعها واشتغل بها ، وصنف خمسة كتب في الشعر [١] منها كتاب الحماسة والوحشيات وهي الحماسة الصغرى) [٢] .

وقد شك د. طه حسين بهذه الرواية وحاول ان ينكرها بقوله : (غير ممكن وغير معقول فقد كانت اقامته رهن زوال الثلج ، وهذا لا يتجاوز الاشهر القليلة ، ومن المستحيل ان يصدق ، انه اختار هذه الكتب في شهرين او ثلاثة) [٣] .

ان نفي الرواية برمتها امر لا يمكن الركون اليه ، لان د. طه حسين - كما هو معروف - ينظر الى كثير من التراث ، نظرة شك وارتياب ، محكما منهجه الشكي عليه / كما لا نرضى بان تكون الرواية سبباً في تفسير الدافع الرئيس وراء اختيار الحماسة ، وقد ردّ احد الباحثين ممن تصدوا لدراسة الحماسة بقولة : (ان رجلاً له مثل ما لابي تمام من ألمعية خاطفة وذوق مرهف ، لا تبطئ به القراءة والاختيار ولا يكلفانه من الوقت والجهد مثل ما يكلفان سواه) [٤] ، كما اضاف دارس آخر سببين آخرين ، كانا وراء اختيار ابي تمام لحماسته فقال : (ولئن كانت اقامة ابي تمام عند آل سلمة في الظروف التي عرفناها داعياً على تأليف الحماسة ، فاني احس ان وراء ذلك دواعي اخرى لعل ابرزها ما ياتي :

اولاً : احساس ابي تمام بفتور الشبيبة وشدة الشعر من ابناء عصره عن حفظ القصائد المطولة ، فرأى ان ينتخب لهم منها ابياتاً ومقطوعات تتناسب مع ما ينشدونه من معاني الشعر واغراضه .

ثانياً : ان عصر ابي تمام كان يموج بالحروب الطاحنة بين العرب والروم وقد عاصر هذه الحروب التي لم تضع اوزارها ، ولم تخمد لها نار طوال الفترة التي عاشها ابو تمام فلعله كان يرمي من وراء تاليفه حماسته الى ان يشبع نفوس الشبيبة من ابناء جلدته ، روح الشجاعة والقوة والانفة) [٥] .

وهذان السببان لا يفسران دواعي اختيار الحماسة بقدر ما يصحان كتفسير لتسمية الاختيار بالحماسة . ان اغلب الآراء التي قيلت حول بواعث اختيار الحماسة قد اغفلت الدافع الفني وراء الاختيارات لدى ابي تمام ، ويبدو ان البواعث كانت فنية خالصة وليست لها علاقة موضوعية بالظروف السياسية في ذلك العصر ، سواء صحت الرواية التي ذكرها التبريزي ام كذبت .

لقد كان معروفاً في العصر الجاهلي والاسلامي ومن بعدها الاموي ، ان لكل شاعر راوية يروي شعره ، فقد ذكر الاصمعي ان الشاعر : (لا يصير شاعراً في قريض الشعر فحلاً حتى يروي اشعار العرب) [٦] وكانوا: (يسمون الشاعر الذي يجمع الى جودة شعره ، رواية الجيد من شعر غيره " خنذيذاً " أي ، تاماً ويجعلون الشاعر الراوية اول الشعراء قدراً) [٧] ، كما يرى احد الدارسين انه (لا يمكن تصور شاعر كبير في الجاهلية او في الاسلام لم يمر بمرحلة الرواية ، يطلع فيها على نتاج الشعراء ، ويحفظ خلالها روائعهم من قصائد ومقطعات) [٨] .

ان ابا تمام قد ادرك هذه المعايير التي من خلالها يُقيّم الشعراء ويكملوا تقنياتهم الشعرية - ان صح التعبير - فاراد ان يكون راوية لاشعار العرب ، قديمها ومحدثها ، ولكن ليس مشافهة مثلما كان معروفاً في الجاهلية وفي العصر الاموي وانما بالتدوين ، فاختار ما اختار من الشعر القديم والمحدث ، محكماً ذوقه الادبي الرفيع وفطنته وقدرته على تمييز الجيد من الرديء ، فضلاً عن اطلاعه على اشعار العرب ومعرفته بها ، فقد كان هناك اجماع من لدن علماء العربية بان ابا تمام كان عالماً بالشعر العربي قديمه ومحدثه ، جيده ورديئه ، رواية وحفظاً ودراية وعلماً ، حتى قالوا عنه : (انه كان يحفظ اربعة عشر الف ارجوزة للعرب ، غير القصائد والمقاطيع) [٩] كما يروي الصولي عن ابي تمام بان : (علمه وعقله فوق شعره) [١٠] ، ويقول الامدي عنه : (كان ابو تمام مشتهراً (وتروى مستهتراً) بالشعر مشغوفاً به ، مشغولاً مدة عمره ، بتخيره ودراسته ،

وله كتب اختيارات مشهورة معروفة) [١١] . اذن اصبح واضحاً لدينا ، ان ابا تمام اراد ان يجاري الشعراء الذين سبقوه في اعتماد الرواية مقياساً لفحولة الشاعر واتمام شاعريته .

ابو تمام الناقد :

لقد ذكر التبريزي في شرح الحماسة قولاً شائعاً عن المفاضلة بين شعر ابي تمام واختياراته في الحماسة ، فقال : (قالوا : ان ابا تمام في اختياره الحماسة ، اشعر منه في شعره) [١٢] والظاهر من معنى القول ان هذا الرأي ليس رأي التبريزي وحده ، لانه اسند القول الى ضمير الجماعة ، أي ان الرأي كان مشهوراً شائعاً ، شيوع شعر ابي تمام واختياراته وان ذلك كان مشهوراً بين جمهور الادباء وعامة الناس ، وذلك الحكم لم يأتِ من فراغ او كان صدفة بل كان يمثل معياراً نقدياً لتقويم ابي تمام في اختياراته ولاسيما الحماسة التي كثر شراحها [١٣] مثلما كثرت التعليقات والتفسيرات عليها والاختيارات منها [١٤] ، علماً بان التبريزي لم يكن اول من تصدى لشرح الحماسة بل كان ابو بكر الصولي (ت ٣٣٥ هـ) هو اول شارح لها ، والمدة الفاصلة بين وفاة ابي بكر الصولي ووفاة التبريزي تقدر بـ (مائة وخمسين سنة) اذن كان الحكم متداولاً بين الناس طيلة تلك المدة لكن اول من ذكر ذلك القول مدوناً هو التبريزي الذي كان يؤمن بذلك لاسيما وانه قد ذكر ذلك اثناء شرحه للحماسة ، واذا عدنا لذلك وحاولنا ان نلتمس تاويلاً للفظ (اشعر) فاننا سنستبعد المعنى المعجمي جانباً ونحاول ان نستشف المعنى النقدي المتضمن فيه ، ان التقويم كان يخص ذوق وعلم ابي تمام في الشعر العربي قديمه ومحدثه ، وما ذلك الا تقويم لنقد ابي تمام في اختياره ، واذا رجعنا ادراجنا قليلاً ، نرى ان المرزوقي في شرحه للحماسة قد بدأ بتحبير مقدمة نقدية ، ذات اهمية كبيرة في النقد

العربي قديمه وحديثه ، ويبدو لي ان المرزوقي ما كتبها الا ليثبت ان ابا تمام كان ناقداً بارعاً فضلاً عن كونه شاعراً مبدعاً ، (فقد ضمنها مسائل شتى تتعلق بموازنة النظم والنثر ، ايهما اشرف واعلى قدراً ، ويتبع ذلك الكلام على المقايسة بين منزلة الشاعر والكاتب والعلة في كثرة الشعراء وقلة الكتاب .. وما مدى العلاقة بين ذوق الاديب فيما يصنع بيانه من انتاج ادبي وفيما يختار من بيان غيره ، وهذه المسألة مبنية على ما صنع ابو تمام في اختياره الحماسة ، اذ كان ذوقه في ذلك مخالفاً لذوقه في نسج شعره وصناعته ، مخالفة ظاهرة وقد اجاد المرزوقي في جوامع هذه المسألة بما يعد مثالاً للبيان ، وغلبة في اصابة الحكم) [١٥] . فالمرزوقي كان يشعر بالحس النقدي لدى ابي تمام ، بدلالة ؛ انه قد اورد (شرائط) قواعد الاختيار التي يجب ان يتبعها كل من يتصدى لجمع الاشعار فقال : (وقضيت العجب [يقصد المخاطب] كيف وقع الاجماع من النقاد ، على انه لم يتفق في اختيار المقطعات ، انقى مما جمعه [ابو تمام] ولا في اختيار المقصدات ، او في مما دونه المفضل [الضبي] ونقده) [١٦] ويستفاد من قول المرزوقي امران :

اولهما : ان المرزوقي نص على ان النقاد في عصره قد اجمعوا ، ان ابا تمام كان افضل من اختار في المقطعات وانقى من جمع في الشعر العربي القديم .

ثانيهما : كان المرزوقي يشعر بالحس النقدي لدى ابي تمام دون ان يصرح او يحدد بلفظه او بمصطلح هذه الصفة لدى ابي تمام ، أي لم يقل انه (كان ناقداً) او (هو ناقد) ويبدو ان ذلك راجع الى ان ابا تمام كان معروفاً في عصره بانه فضلاً عن كونه شاعراً ، كان ناقداً بارعاً لان من يتصدى لرواية اشعار العرب ، لابد له من يمتلك الآلة النقدية ، ويعزز هذا الرأي ، ان المرزوقي قد ذكر لفظ (نقد) عندما جمع بين ابي تمام والمفضل الضبي فقال : (اوفى مما دونه المفضل ونقده) .

لقد كانت هناك قيمة ادبية كبيرة لاختيارات ابي تمام وذلك لم يأتِ من شيء مجرد قط ، خاصة اذا عرفنا ان كثيراً من علماء العربية قد شهد لابي تمام حسن اختياره

وبراعته ، فقد حكى الصولي :(انه سمع المبرد يقول : سمعت الحسن بن رجاء ، يقول : ما رأيت احداً اعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من ابي تمام) [١٧] وينقل الصولي خبراً اخر عن رأي ابي تمام النقدي في شعر احد المحدثين فقال : (حدثني الحسين بن اسحق ، قال : سمعت ابن الدقاق يقول : حضرنا مع ابي تمام وهو ينتخب اشعار المحدثين ، فمر به شعر محمد بن ابي عيينة المطبوع الذي يهجو به خالداً فنظر فيه ورمى به ، وقال : هذا كله مختار ، وهذا ادل دليل على علم ابي تمام بالشعر) [١٨] .

كما يذكر الصولي رواية اخرى تعزز قدرة ابي تمام النقدية ، فقال : (حدثني سوار بن ابي شراعة ، قال : حدثني البحتري ، قال : كان اول امري في الشعر ونباهتي فيه اني صرت الى ابي تمام وهو بحمص فعرضت عليه شعري وكان يجلس فلا يبقى شاعر الا قصده وعرض عليه شعره ، فلما سمع شعري اقبل علي وترك سائر الناس فلما تفرقوا ، قال : انت اشعر من انشدني فكيف حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب الى اهل معرّة النعمان ، وشهد لي بالحذق ، وقال : امتدحهم ، فصرت اليهم فأكرموني بكتابة ووظفوا لي اربعة الآف درهم ، فكانت اول ما اصبته) [١٩] .

ان هذه الرواية تتضمن اعترافاً كبيراً بان ابا تمام كان من النقاد المشهورين في ذلك العصر، فالشعراء يحتكمون عنده ويعرضون عليه اشعارهم ، فيزكيهم ويشهد لهم بالملكة والشاعرية وان من يشهد له (بالحذق) تروج بضاعته لدى من يرى في الشعر مثالاً للشهرة والاعلام، ومن الاحكام النقدية التي رويت عن ابي تمام قوله في ابي نواس ، فقد (حكي عنه، انه قال : ما فكر ابو نواس قط في قرض الشعر ، وانه كان يقول ما قاله على البديهة، والسخيف من شعره ما قاله على الفكر، والرديء منه منحول عليه)[٢٠] .

وينقل الصولي رواية اخرى عن نقد ابي تمام للشعر ولكن هذه المرة ، يعطي رأيه في شعره ، فقال : (حدثني علي بن العباس الرومي ، قال : حدثني مثقال : [الواسطي ، محمد بن يعقوب] قال : دخلت على ابي تمام وقد عمل شعراً لم اسمع احسن

منه ، وفي الابيات بيت واحد ليس كسائرها وعلم اني قد وقفت على البيت ، قلت له : لو اسقطت هذا البيت ! فضحك وقال لي : أتراك اعلم بهذا مني ؟ انّما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة ، كلهم اديب ، جميل ، متقدم ، فيهم واحد قبيح ، متخلف ، فهو يعرف امره ، ويرى مكانه ، ولا يشتهي ان يموت ، ولهذه العلة كثر مثل هذا في اشعار الناس) [٢١] .

كما يروي ابن المعتز عن محمد بن قدامة رواية تظهر اهتمام ابي تمام ومراجعته الكتب واستمرار مصاحبتها ، فقال : (دخلت على حبيب بن اوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى ، ووقفت ساعة لا يعلم بمكاني لما هو فيه ، ثم رفع رأسه ، ونظر الي وسلم عليّ فقلت له : يا ابا تمام انك لتنظر في الكتب كثيراً وتدمن الدرس ، فما اصبرك عليها ، فقال : والله ما لي الف غيرها ولا لذة سواها واني لخليق ان اتفقدها ان احسن) [٢٢] .

ان كل الروايات التي ذكرت سلفاً ، تظهر - بما لا يقبل الشك - ان ابا تمام كان يمتلك ثقافة واسعة واطلاعاً كبيراً على التراث الادبي العربي ، كما تبين انه يمتلك ذوقاً ادبياً رفيعاً ، اعتمد عليه في اختياراته ولاسيما الحماسة واذا شك احد بصدق الروايات او ببعضها ، فان كثرتها وتنوعها - لا شك - هي الدليل على ان ابا تمام كان اديباً ناقداً وشاعراً ، ليس هذا فحسب وانما هناك من يرى ان ابا تمام كانت له آراء نقدية كبيرة قد ضمنها في شعره فقال : (كان ابو تمام ينتقل في [نهايات القصائد] من الخلق الفني الى تأمل الخلق الفني ، ويتحول من شاعر نظم قصيدة الى ناقد يصنعها ويحكم في جمالها وطريقة صنعها وأثرها وغير ذلك مما يعنى به نقاد الشعر .. ولسنا نغالي اذا قلنا ان الشاعر عالج طائفة لأهم القضايا التي عرفها النقد في عصره وبعد عصره ومنها قضايا أثارها هو نفسه بشعره ومذهبه فيه ، ولابد من ان نحتاط ، فنقول : ان الشاعر عرض آراءه هذه بلغة الشعر وصوره ورموزه ولم يعرضها في الاكثر بالمصطلح النقدي) [٢٣] .

منهج ابي تمام النقـــدي :

لاشك في ان ابا تمام كان يمتلك منهجاً نقدياً دقيقاً في اختياراتـــه ، فقـــد كانـــت مختلفة عن الاختيارات التي سبقتها ، فهي ضرب آخر بدأه ابو تمـــام بـــديوان الحماســـة وجرى فيه على تبويب معاني الاختيار .. والظاهر ان ابا تمام قد ســـماه بـــأول ابوابـــه واعظمها [٢٤] .

وقد ادرك المرزوقي ان مذاهب النقاد في شرائط الاختيار مختلفة وطرائق ذوي المعارف باعطافها وارادفها مفترقة . لذلك فان ابا تمام قد اختط لنفسه منهجاً خاصاً فـــي اختياره لاشعار الحماسة يختلف عن نهجه الشعري قال المرزوقي : (واما تعجبـــك مـــن ابي تمام في اختياره هذا المجموع وخروجه عن ميدان شعره ، ومفارقته ما يهواه لنفسه ، واجماع نقاد الشعر بعده على ما صحبه من التوفيق في قصده ، فالقول فيه : ان ابا تمـــام كان يختار ما يختار لجودته لا غير ، ويقول ما يقوله من الشعر بشهوته والفرق بين مـــا يشتهي وبين ما يُستجاد ظاهر) [٢٥] .

يحاول المرزوقي ان يجعل (الجودة) مقياساً ومعياراً ومنهجاً عند ابي تمام في اختياراته وان ابا تمام كان لا يهتم بما حول النص وانما يركز جل اهتمامه على الـــنص ومضمونه يضاف الى ذلك اهتمام ابي تمام بالمعيار الاخلاقي والمعيار النوعي فهو : (لم يعمد من الشعراء الى المشتهرين منهم دون الاغفال ولا في الشعر المتردد في الافـــواه ، المحبب لكل داع ، بل اعتسف في دواوين الشعراء ، جاهليهم ومخضرميهم واسلاميهم ، ومولدهم واختطف منها الارواح دون الاشباح ، واقترف الاثمار دون الاكمام ، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه ، لان ضروب الاختيار لم تخف عليه ، وطرق الاحسان والاستحسان لم تستتر عنه ، حتى انك تراه ينتهي الى البيت الجيد فيه لفظه تشينه ، فيجبر نقيصته من

عنده ويبدل الكلمة باختها في نقده وهذا يبين لمن رجع الى دواوينهم فقابل ما في اختياره بها) [٢٦] .

ان المرزوقي استطاع ان يلم بالشكل العام للمنهج الذي سار عليه ابو تمام في اختياره وعدّ ذلك الصنيع ، عملاً لا يتوفر الا لمن (يعرف مستور المعنى ومكشوفه ، ومرفوض اللفظ ومألوفه وميز البديع الذي لم تقتسمه المعارض ولم تعتسفه الخواطر ، ونظر وتبحر ، ودار في اساليب الادب فتخير ، وطالت مجاذبته في التذاكر والابحاث ، والتداول والابتعاث ، وبان له القليل النائب عن الكثير ، واللفظ الدال على الضمير ، ودرى تراتيب الكلام واسرارها كما درى تعاليق المعاني واسبابها الى غير ذلك مما يكمل الآلة ، ويشحذ القريحة ، تراه لا ينظر الا بعين البصيرة ، ولا يسمع الا باذن النصفة ، ولا ينتقد الا بيد معدلة ، فحكمه الحكم الذي لا يبدل ، ونقده النقد الذي لا يغيّر) [٢٧] .

ان تلك السمات التي ذكرها المرزوقي تنطبق الى حد كبير على ابي تمام لذلك نرى ان ابا تمام كان يحتل مرتبة عالية في سلم النقد ..

اما فيما يخص تبويب الحماسة فان هذا العمل يمكن ان يعد معياراً آخر استخدمه ابو تمام في تصنيفه وتقسيمه الحماسة الكبرى على عشرة ابواب [٢٨] اولها واكبرها حجماً ، باب الحماسة وباب المراثي ، وباب الادب ، وباب الاضياف والمديح وباب الصفات ، وباب السير والنعاس ، وباب الملح ، وختمها في باب مذمة النساء [٢٩] .

وعلى الرغم من ان ابا تمام قد قسّم الابواب على المعاني الا ان هذا التقسيم لا يشكل حداً فاصلاً بين الاغراض بل قد تتداخل وتشترك فيما بينها في المعاني فقد (جمع ابو تمام بين شعر الاضياف وشعر المديح ، اذ ان شعر الاضياف في جوهره ثناء واظهار للمحامد وكذلك في باب النسيب لم يقتصر ابو تمام على ايراد ما يختص من الشعر بوصف محاسن المرأة والهيام بها وما يستتبع ذلك من الوجد والفراق بل جعله يتسع

ليشمل كل معنى رقيق فيه تعبير عن اللذة واللهو) [٣٠] . كما ادخل ابو تمام في باب الحماسة مقطوعات شعرية في الشكوى والغزل ووصف الخمر ، ومثال ذلك قول جعفر بن علبة الحارثي [٣١] :

هواي مع الركب اليمانين مصعدٌ ... جنيبٌ وجثماني بمكة موثق
عجبتٌ لمسراها وانى تخلصت ... اليّ وبابٌ السجن دوني مغلق
اتتنا فحيت ثم قامت فودعت ... فلما تولت كادت النفس تزهق
ولا ان نفسي يزدهيها وعيدهم ... ولا انني بالمشي في القيد اخرق
ولكن عرتني من هواك صبابة ... كما كنت القى منك اذ انا مطلق

ان المرزوقي لم يغفل ان هذه الابيات ليست مما يمت للحماسة بصلة كبيرة ، لكنه اوجد تأويلاً لورودها في باب الحماسة فقال : (هذه الابيات ضمنها هذا الباب لما اشتملت عليه من حُسن صبر على البلاء وقلة ذعر من الموت والفناء واستهانته بوعيد المتوعد وحذقه برَسَفان المُقيّد) [٣٢] .

كما ورد في باب الحماسة قول اخر [٣٣] :

لا يمنعك خفض العيش في دعة ... نزاع نفس الى اهل واوطان
تلقى بكل بلاد ان حللت بها ... اهلاً باهل وجيراناً بجيران

وقد علق المرزوقي عليها كذلك - بقوله : (وقد ضمن ابو تمام هذه الابيات ، باب الحماسة لما قدّمته من انها صادرة عن قسوة شديدة ، وقلة فكر في التحول عن الالف والعادة ، ولان ترك الوطن والاخلال بالعشيرة يضم الى القتل وتلف النفس ، فالصبر عليه كالصبر على القتل الا ترى قوله تعالى : ((ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم)) [٣٤] .

ومن المقطوعات الشعرية المختارة في باب الحماسة والتي لا يمكن ان تدخل الى هذا الباب الا بتأويل معنى وامعان نظر قول خطاب بن المعلى في الشكوى [٣٥] :

انزلني الدهر على حكمه ... من شامخ عالٍ الى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى ... فليس لي مال سوى عرضي
ابكاني الدهر ويا ربما ... اضحكني الدهر بما يرضى
لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع ... في الارض ذات الطول والعرض
وانما اولادنا بيننا ... اكبادنا تمشي على الارض

ان ابا تمام قد اورد هذه الابيات ضمن باب الحماسة لانها تتضمن معاني الصبر والجلد ومقاومة النكبات والتأسي فمرة يضحكه الزمان واخرى يبكيه وهذا الفارق بين الضحك والبكاء يتطلب قوة تحمل كبيرة لاسيما بعد انقلبت حياة الشاعر رأساً على عقب ، اذن دخولها باب الحماسة كان مبرراً .

كما ادخل ابيات امية بن ابي الصلت التي يشكو فيها من جفاء وقسوة ولده في باب الحماسة ايضاً ، المرزوقي وجد التعليل لهذا الصنيع ، قال امية [٣٦] :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً ... تعلّ بما ادنى اليك وتنهل
اذا ليلة نابتك بالشكو لم ابت ... لشكواك الا ساهراً أتململ
كأني انا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني وعيني تهمل
فلما بلغت السن والغاية التي ... اليها مدى ما كنت فيك اؤمل
جعلت جزائي منك جبهاً وغلظة ... كأنك انت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق ابوتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

تراه معداً للخلاف كأنـــــــه بردّ علي اهل الصواب موكـــل

قال المرزوقي : (فإن قيل : بماذا أدخل هذه الابيات وما يتلوها [٣٧] - وهو في معناها - في باب الحماسة ؟ قلت : دخلت فيه بالمشاكلة التي بينها وبين ما تقدمها من الابيات المنبئة عن المفاسد بين العشائر وما يتولد فيها من الاحن والضغائن ، المنسية للتواشج والتناسب المنشئة لهتك المحارم المبيحة لسفك الدماء وقطع العصم ؛ اذ كان عقوق البنين للآباء وتناسي الحّرم فيه مثل ذلك ، وهو ظاهر بيّن) [٣٨] .

ان قول المرزوقي يدلل على ان ابا تمام لم يكن ينظر الى المعنى العام للقصيدة او المقطوعة فيضعها محلها ضمن الابواب بل كان يوافق بين المعاني الضمنية للمقطوعات الشعرية في الباب الواحد فلا تأتي الابيات مقطوعة معزولة عن سابقتها بل متصلة الوشائج والعلائق في الموضوع والمعنى وهذا يعني ان ابا تمام كان واعياً جداً في اختياراته للابيات الشعرية وتقسيمها على الابواب ولم يكن يداخل شيئاً غريباً عليها - ولو بدا للوهلة الاولى انها مختلفة المعنى - ، غير ان هناك امراً يجب ملاحظته ، وهو ؛ ان ابا تمام كان يورد قصائد ومقطوعات شعرية يكون بعضها موافقاً للمعنى العام للباب والقسم الآخر من الابيات يكون مناقضاً للمعنى العام للباب ذاته كما في قول المنخل اليكشري [٣٩] :

ان كنت عاذلتي فسيري نحو العراق ولا تحوري
لا تسألي عن جلّ مـــا لي وانظري كرمي وخيري
وفوارس كأوار حـــر ر النار احلاس الذكـــور
شدّوا دوابر بيضهـــم في كل محكمة القتيـــر
واستلأموا وتلببـــوا ان التلبب للمغيـــر

وعلى الجياد المضمـــرا ت فوارس مثل الصقـــور
واذا الريـــاح تناوحت بجوانب البيت الكسيـــر
الفيتني هش اليديـــ ـن بمري قدحي او شجيري
ولقد دخلت على الفتـــا ة الخدر في اليوم المطيـــر
الكاعب الحسناء تـــر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتهـــا فتدافعـت مشي القطاة الى الغديـــر
ولثمتها فتنفســـت كتنفس الظبي العقيـــر
فدنت وقال يا منخـــ ـخل ما بجسمك من حـرور
ما شفّ جسمي غير حبـ ـبك فاهدائي عني وشيـري
واحبها وتحبنـــي ويحب ناقتها بعيـــري
ولقد شربت من المـــدا مة بالصغير وبالكبيـــر
فاذا انتشيت فأننـــي ربّ الخورنق والسديـــر
واذا صحوت فأننـــي ربّ الشويهة والبعيـــر
يا هند من لمتيّـــم يا هند للعاني الاسيـــر

لا يخفى ان بداية القصيدة كانت تتوافق ومعنى الحماسة ، الا ان الشاعر بعد البيت الثامن ينتقل الى موضوع الغزل ووصف الحبيبة ثم بعد ذلك يصف نفسه وهو منتش بفعل ما شرب من خمر فاصبح لدينا تداخل في معاني المقطوعة الواحدة ضمن الباب الواحد ، كما ان المرزوقي لم يعلق على هذه الحالة التي يمكن تبريرها وتعليلها ، بان أبا تمام كان يشعر بالوحدة الموضوعية للقصيدة ولا يرى فرقاً بين ابياتها لانها تدخل في معنى الحماسة ، فالغزل ومطاردة المرأة ووصفها واللقاء بها وشرب الخمر ووصفها ، هي أمور معدودة من صفات الفرسان والفخر والاقدام وتعد كذلك من مكملات شرائط

الفروسية لدى الشعراء ما قبل الاسلام ، فالمعنى العام للابيات يتوافق مع المعنى الخاص للحماسة ، وهناك مثال آخر يذكره ابو تمام في باب الحماسة ، يبدأ الشاعر فيه بالغزل ووصف الحبيبة ثم ينتقل بعد ذلك الى الفخر والشجاعة وصفات الفروسية وهذا يعزز ما ذكر سابقاً من اجتماع اكثر من معنى في القصائد المختارة ، قال البعيث بن الحريث (٤٠) :

خيالٌ لام السلسبيل ودونها ... مسيرة شهر للبريد المذبذب
فقلت لها اهلاً وسهلاً ومرحبا ... فردت بتأهيل وسهل ومرحب
معاذ الاله ان تكون كظبية ... ولا دمية ولا عقيلة ربرب
ولكنها زادت على الحسن كله ... كمالاً ومن الطيب على كل طيب
وان مسيري في البلاد ومنزلي ... لبالمنزل الاقصى اذا لم اقرب
ولست وان قربت يوماً ببائع ... خلاقي ولا قومي ابتغاء التحبب
ويعتدّه قوم كفير تجارة ... ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي
دعاني يزيد بعدما ساء ظنه ... وعبس وقد كانت على حدّ منكب
وقد علما ان العشيرة كلها ... سوى محضري من خاذلي وغيب
فكنت انا الحامي حقيقة وائل ... كما كان يحمي عن حقائقها ابي

اما في بابي الاضياف والمدح فقد نجد تداخلاً بيناً واضحاً لكل معنى فقد ورد قول الشاعر (٤١) :

وزاد وضعت الكف فيه تكرماً ... وما بي لولا انسة الضيف من اكل
وزاد رفعت الكف عنه تكرماً ... اذا ابتدر القوم القليل من الثفل

وزاد الكناه ولم ننتظر بـــــه غداً ان بخل المرء من اسوء الفعل

ويقول الاخر [٤٢] :

لقلّ عاراً اذا ضيف تضيفني ما كان عندي اذا اعطيت مجهودي
جهد المقلّ اذا اعطاك نائلـــة ومكثر في الغنى سيان في الجـودِ

وهذان القولان ينتميان من حيث المعنى الى باب الاضياف ، لكنهما وجدا فـي باب المدح كذلك نجد شعراً في باب الاضياف وحقه ان يوضع في باب المدح ، مثل قول العرندس [٤٣] :

هيّنونَ ليّنونَ أيسار ذوو كـــــرم سواس مكرمة ابناء ايســـــار
ان يسألوا الخير يعطوه وان خبروا في الجهد ادرك منهم طيب اخبـــار
وان تودتهم لانوا وان شهمـــوا كشفت اذمار شر غير اشـــــرار
فيهم ومنهم يعد الخير متلـــــدا ولا يعدّ نثا خزي ولا عـــــار
لا ينطقون على الفحشاء ان نطقوا ولا يمارون ان ماروا بإكثـــــار
من تلقَ منهم تقل لاقيت سيّدهـم مثل النجوم التي يسري بها الساري

والسبب في هذا التداخل يرجع الى المرزوقي وليس الى ابي تمام ، فقـد جمـع التبريزي في باب واحد هو " باب الاضياف والمديح " لكن المرزوقي قـد فـرق بينهمـا واصبحت ابواب الحماسة احد عشر باباً بدل عشرة ابواب فقد جعل للمدح باباً وللاضياف باباً على الرغم من العلاقة الكبيرة التي تربط بينهما من ناحية الموضـوع والمعنـى ولا اظن ان ابا تمام كان غافلاً عن هذا الشبه الكبير بين الموضوعين ، وهناك ملاحظة اخرى على تقسيم الابواب لم تكن متقاربة في عدد المختارات الشعرية ، فباب الحماسة - مثلاً - وهو اكبر الابواب لا يمكن مقارنته بباب الصفات الذي وردت فيـه ثـلاث مقطوعـات

شعرية فقط وكذلك ابوب (الملح) و (السير والنعاس) و (مذمة النساء) وهذا يدلل على ان ابا تمام قد اهتم اهتماماً كبيراً بباب الحماسة ، لان الاشعار العربية في عصر ما قبل الاسلام والعصر الاسلامي والاموي اتسمت غالبيتها بسمة الحماسة فالموضوع العام لمضمون لهذه الاشعار هو الحماسة ، فنجد الفخر ووصف الحرب وما يلتف حولهما من معاني واوصاف يدخلان ضمن باب الحماسة ، ولا يخفى ان الشعر كان يدور في افلاك هذه المضامين ، أي ان وفرة الشعر في هذا الغرض جعلت الباب بهذا الحجم ، كما يحتل باب النسيب المرتبة الثانية من حيث كمية المختارات الشعرية وللسبب نفسه واغلب هذه المختارات كانت لشعراء عذريين تربع على عرشهم عبد الله بن الدّمينة ، اذن التفاوت في احجام الابواب وعدد المختارات فيها يرجع الى توفر هذا الشعر في تلك العصور واظن ان ابا تمام كان يدرك هذا الامر ، لذلك فقد سمى اختياراته بأكبر ابوابها واعظمها وهو باب الحماسة وليس لغرض آخر . هذا يعني ان ابا تمام قد استخدم معايير نقدية مختلفة ففي تقسيمه الاختيارات على الابواب قد استخدم المعيار الكمي وفي اختياره للشعراء استخدم المعيار الفني وابعد المعيار الزمني قدر الامكان فهو كان يختار لشعراء يختلفون في نهجهم الشعري عن نهجه واسلوبه وقد ادرك ذلك المرزوقي وعلق عليه (ان ابا تمام معروف المذهب فيما يقرضه ، مألوف المسلك لما ينظمه ، نازع في الابداع الى كل غاية ، حامل الاستعارات كل مشقة متوصل الى الظفر بمطلوبه من الصنعة اين اعتسف وبماذا عثر ، متغلغل الى توعير اللفظ وتغميض المعنى انّى تأتى له وقدر ؛ وهو عادل فيما انتخبه في هذا المجموع عن سلوك معاطف ميدانه ، ومرتض ما لم يصوغه من امره وشأنه ، فقد فليته فلم اجد فيه ما يوافق ذلك الاسلوب الا اليسير) (٤٤) .

ان القيام بمحاولة احصاء الشعراء الذين اختار لهم ابو تمام توضح وتدعم المعيار الذي اعتمده في اختياره للشعراء ، فقد وردت في الحماسة اسماء الشعراء ؛ مطيع بن اياس واشجع السلمي ، ويحيى بن زياد الحارثي وابو العتاهية والحسين بن مُطير

ومسلم بن الوليد وغيرهم من شعراء الدولة العباسية ، غير انه استبعد شاعرين مهمين كانا معاصرين لهؤلاء الشعراء ، وهما بشار بن برد وابو نواس لكنه يكثر من شعر مروان بن ابي حفصة على الرغم من ان بشاراً قد توفي قبله بما يقارب (١٥) سنة ! واظن ان هذا الصنيع من ابي تمام لم يكن لغفلة منه لذكر هذين الشاعرين الكبيرين وانما كان يعلم بان علماء العربية في زمانه وقبله قد اخرجوا بشاراً وابا نواس من دائرة الشعر القديم عندما ختموا الشعر بمروان بن ابي حفصة اذ ان مروان (اخذ بمسلك الاوائل) [٤٥] في حين قد عدّوا بشاراً (اول من جاء بالبديع) [٤٦] . ان بشاراً وابا نواس قريبان من اسلوبه الشعري [*] الذي يختلف عن اساليب الشعراء الذين اختار لهم في حماسته [**] ولو بدا للوهلة الاولى بانه قد اختار لشعراء يدخلون ضمن ما يسمى بمدرسة البديع وهما : مطيع بن اياس ومسلم بن الوليد اللذان اختار لهما ثلاث مقطوعات شعرية مقطوعتان في باب الرثاء لمطيع بن اياس ومقطوعة واحدة فقط لمسلم بن الوليد وفي باب الرثاء ايضاً وهذا الفعل له دلالته ، فلِمَ في باب الرثاء دون غيره من الابواب ؟ لان ابا تمام كان يعرف بان هذه المقطوعات لا تختلف كثيراً في موضوعها واسلوبها عن الاختيارات الاخرى الواردة في الحماسة ، فلا ضير - اذن - من ذكرها فهي لا تعد كسراً لقاعدته التي استند اليها في اختياره وهي (المعيار الفني) الذي قال به علماء العربية .

ممارسة ابي تمام النقدية :

لقد فطن علماء العربية بعد ابي تمام الى انه كان يغير بالنصوص التي اختارها في الحماسة ومنهم المرزوقي عندما قال : (حتى انك تراه ينتهي الى البيت الجيد فيه لفظة تشينه فيجبر نقيصته من عنده ويبدل الكلمة باختها في نقده ، وهذا يبين لمن رجع الى دواوينهم فقابل ما في اختياره بها) [٤٧] .

وعلى الرغم من ان ابا تمام قد غيّر في النصوص التي اختارها الا اننا نجد ان (العلماء مجمعون على تزكية ابي تمام في الحماسة ، وعلى تزكية الحماسة ونصوصها ، بل يعدون صنيعه في الحماسة داعية الى الوثوق بشعر ابي تمام نفسه والاستشهاد بشعره ، وفي ذلك يقول الزمخشري : وهو وان كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه . الا ترى الى قول العلماء : الدليل على هذا بيت الحماسة ، فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته واتقانه) [٤٨] .

ان علماء العربية يعرفون ان ابا تمام قد غير وبدل بالنصوص ولكنهم يستشهدون بنصوص منها للاحتجاج في اللغة والنحو ، وهذا يعني انهم قد ادركوا بان تغيير ابي تمام بالنصوص لم يكن تغييراً يبعدها عن الحدود التي ارتضوها في الشعر كي يكون فصيحاً وحجة في العربية أي انه قد غير النصوص على وفق حاسته الذوقية وطبعه وليس على وفق نهجه الشعري لذلك قال المرزوقي عن ذلك : (فقد فليته فلم اجد فيه ما يوافق ذلك الاسلوب الا اليسير ومعلوم ان طبع كل امرئ - اذا ملك زمام الاختيار - يجذبه الى ما يستلذه ويهواه) [٤٩] .

ويعلق د. احسان عباس على رأي المرزوقي بقوله : (وجواب المرزوقي على هذه المشكلة قد يترجم في لغتنا الحديثة الى ان الاختلاف بين مختارات ابي تمام وبين شعره ناجم عن التباين بين ابي تمام الناقد وابي تمام الشاعر) [٥٠] ولهذا قيل : (ان الشعراء السابقين لو قدر لهم ان يشاهدوا صنيع ابي تمام باشعارهم لوافقوه على هذا الصنيع) [٥١] واذا تساءلنا - فرضاً - ما الذي يجعل الشعراء يقبلون بصنيع ابي تمام هذا في اشعارهم ، لوجدنا ان الاجابة تكمن في ان ابا تمام (كان حاد الشعور ، كما كان يحس الاشياء سريعاً ويتأثر بها تأثراً عميقاً ثم لم يكن ذكاؤه يمتاز بهذه الحدة فحسب ، وانما يمتاز بشيء من العمق لم يكن لغيره من الشعراء ... فكان يصل الى اشياء لم يتعود الناس ان يروها ولا ان يصلوا اليها) [٥٢] .

وقد اخترت قسماً من النصوص التي نالتها آلة ابي تمام النقدية بالتعديل والتبديل والتغيير . قال الفرزدق : (الديوان) [٥٣]

فأن تنصفونا آل مروان نقتـــــرب ... اليكم ، والا فأذنوا ببعـــــاد
فأن لنا عنكم مراحاً ومذهبـــــاً ... بعيس الى ريح الفلاة صـــوادي
مخيسةٍ بّزل تخايل في البـــــرى ... سوار على طول الفلاة غوادي
وفي الارض عن ذي الجور منأى ومذهب ... وكل بلاد اوطنتك بـــــلادي
وماذا عسى الحجاج يبلغ جهـــــده ... اذا نحن خلّفنا حفير زيـــادِ

وقال الفرزدق (الحماسة) [٥٤] :

فأن تنصفونا آل مروان نقتـــــرب ... اليكم ، والا فأذنوا ببعـــــاد
فأن لنا عنكم مزاحاً ومذهبـــــاً ... بعيس الى ريح الفلاة صـــوادِ
مخيسةٍ بّزل تخايل في البـــــرى ... سوار على طول الفلاة غوادِ
وفي الارض عن ذي الجور منأى ومذهب ... وكل بلاد اوطنت كبـــلادي
فباست ابي الحجاج وأست عجـــوزه ... عُتّيد بهم ترتعي بوهـــاد [٥٥]
فلولا بنو مروان كان ابن يوســـف ... كما كان عبداً من عبيد أيـــاد

وروى التبريزي بعد البيت الاخير [٥٦] :

زمان هو العبد المقر بذلـــــةٍ ... يراوح صبيان القرى ويغادي

لقد بدّل ابو تمام لفظ " مراحاً الواردة في الـديوان بلفـظ " مزاحـاً " ومعنـى " المراح " هو : ذهاب العشي وعكسه ، الذهاب : رواح الصباح فيكون معنى الـسياق ؛ ان الشاعر يستطيع الذهاب في الليل كما في الصباح ولكن معنى قوله " مزاحـاً " هـو "

من زاح يزيح ، اذا ذهب ، ومنه أزحتُ العلة والكلام خارج على انه تفسير البعاد الـذي ذكره " [٥٧] .

ان المرزوقي قد بين الفرق الدلالي بين اللفظين (مراح) و (مزاح) ، لـذلك كان ابو تمام محقاً في تغيير اللفظ لان (المزاح) يكون اعمق دلالة وانسجاماً مع المعنى العام للابيات فضلاً عن ان الازاحة قد تشمل مكاناً جغرافياً واقعياً علـى الارض وامـا (المراح) فهو البعد الزماني (الذهاب ليلاً) وهذا ما يؤكد قول المرزوقي بعد هذا عندما يقول : (وبيانه ؛ يقول : ان سمتمونا خسفاً وأذقتمونا في ولايتكم عسفاً ، فأن لنا عـنكم في الارض مبعداً ومنتأى) [٥٨] .

ويغير ابو تمام من قول الفرزدق قوله :

(وكل بلادٍ اوطنتك بلادي) الى (وكل بلادٍ اوطنت كـبلادي) ولا شـك ان التركيـب الثاني اوقع دلالة في اصابة المعنى ، فقد بدل ابو تمام ضمير المخاطـب (ك) لانـه لا ينسجم معنوياً مع السياق فالشاعر يتحدث عن نفسه فلا داعي لاخراج الخطـاب بـضمير الآخر ، خاصة وقد ذكر بعده لفظ (بلاد) منسوبة للشاعر نفسه أي بلادي (انا المتكلم) فغيّر ابو تمام جملة (اوطنتك) بـ (أوطنت) - بناء الفعل للمجهول - ولا شك ان ابـا تمام كان يريد جملة (اوطنتني) لكن شبه الجملة (كبلادي) لا تنسجم من حيث الـوزن مع (اوطنتني)و (كبلادي) لها دلالة اقوى وابعد ولا يمكن الاستغناء عنها لان وجـود الكاف هنا ضروري فهي لزيادة توكيد الدلالة ، فكل بلاد هي بلادي ولكن ليست بـلادي على وجه الحقيقة ، ولعل التراكيب الدلالية الاتية توضح المعنى الذي قصده ابو تمام من تغييره .

وكل بلادٍ أوطنتك بلادي

هي انت انا ⟸ اختلاف الضمائر ونقص في الدلالة

وكل بلادٍ أوطنتني بلادي

هي انا انا ⟸ توافق الضمائر ونقص في الدلالة

وكل بلادٍ أوطنتني كبلادي

هي انا انا ⟸ توافق الضمائر واكتمال في الدلالة لكن وجود مخالفة عروضية

وكل بلادٍ أوطنت كبلادي

هي هي انا ⟸ توافق الضمائر واكتمال الدلالة

والتغيير الاخر توضحه التراكيب الدلالية الاتية :

فأن لنا عنكم مراحاً ومذهباً

ذهاب في العشي ذهاب في الصباح

بعد زمني لا يفيد السياق والمعنى

فان لنا عنكم مزاحاً ومذهباً

ازاحة نهج

بعد مكاني يجتازه الشاعر بوساطة العيس يتوافق مع المعنى

وفي الارض عن ذي الجور منأى ومذهب

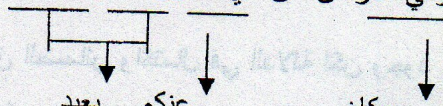

ان للضمير في توجيه الخطاب وصحته اهمية كبيرة في ذهنية ابي تمام النقدية وهذا يلاحظ من خلال التغييرات الاتية :

قال يزيد بن مفرغ الحميري [٥٩] :

ألا طرقتنا اخر الليل زينب سلامٌ عليكم هل لما فات مطلب ؟

وورد في الحماسة [٦٠] :

ألا طرقتنا اخر الليل زينب عليك سلامٌ هل لما فات مطلب ؟

لقد قدّم ابو تمام شبه الجملة الجار والمجرور (عليكم) على كلمة (سلام) كما ابدل ضمير المخاطبين (كم) بالضمير المفرد (ك) ولكلا التغيريين وجه من الوجوه الدلالية فبابدال ضمير الجماعة الى ضمير المفرد اراد ابو تمام ان يحصر السلام في شخص المخاطب وحده وليبعد النظر عن ان يكون هناك شخص آخر مع زينب اما تقديم شبه الجملة (عليك) على كلمة (سلام) فدلالته ان زينب المخاطبة هي العنصر المهم في عملية الخطاب مع بيان ان مصدر الخطاب هو الشاعر وليس زينباً ، وقد علق المرزوقي على ذلك قائلاً : (وكان يُروى : (عليك سلام) - بفتح الكاف - ويجعل الخطاب والتسليم من المرأة للرجل ويقول : انما حيته بتحية الموتى لتولي ايامه ، وتناهي عمره ، وقولها : (هل لما فات مطلب) من كلامها ، معاتبة كأنها انكرت التعرض لها وقد فاته دالة الشباب وشفاعة النضارة والاقتبال ، والاولى ما قدمته) [٦١] .

لقد نالت الضمائر اهتماماً خاصاً من لدن ابي تمام ، فقد كان معظم تغييره منصباً عليها ، فمرة يحولها من المخاطب الى المتكلم واخرى بالعكس ومرة يضمرها

ومرة يبرزها وهو يعلم جيداً بأن هذه التغييرات تخدم توجيه الخطاب عند الملتقي ، ففي تقلباتها ينقلب المعنى ويتحول من قصد الى قصد آخر ولكن مع مراعاة عامة للسياق الذي يحتويها .

ان مهارة ابي تمام في التلاعب بالضمائر كانت تظهر مقدرته اللغوية والنقدية في توجيه سياقات الخطاب والتلقي ، فالمتلقي عنده يشغل حيزاً في مستويات العملية النقدية ، كما يرى ان المتلقي هو شريك للمبدع في النص ، لذلك راح يبدل ويغير الضمائر التي توجه الدلالات وجهتها الصحيحة ليكتمل وقعها لدى المتلقي ، ويتضح هذا جلياً في قصيدة الحصين بن حمام المري التي نالت من عناية ابي تمام الشيء الكثير ، ويبدو ان ابا تمام كان معجباً بها فقد اورد منها ابياتاً في باب الحماسة في موضعين ، وخالف بين الاشطر واضاف شطراً جديداً عليها ، قال الحصين [٦٢] :

بني عمنا الادنين منهم ورهطنا ... فزارة اذ رامت بنا الحرب معظما
موالي موالينا الولادة منهم ... ومولى اليمين حابساً متقسما
ولما رأيت الود ليس بنافعي ... وان كان يوماً ذا كواكبٍ مظلما
صبرنا وكان الصبر منا سجية ... بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما
يفلقن هاماً من رجال اعزةٍ ... علينا وهم كانوا اعق واظلما
لدن غدوة حتى اتى الليل ما ترى ... من الخيل الا خارجياً مسوما

وقد وردت هذه الابيات في الحماسة كالاتي [٦٣] :

فقلت لهم يا آل ذبيان مالكم ... تعاقدتم لا تقدمون مقدما
مواليكم مولى الولادة منهم ... ومولى اليمين حابساً متقسما
وقلت تبين هل ترى بين واسط ... ونهى اكفٍ صارخاً غير اعجما

من الصبح حتى تغرب الشمس لا ترى ... من الخيل الا خارجياً مسوما
فلما رأيت الصبر قد حيل دونه ... وان كان يوماً ذا كواكب مظلما
صبرنا وكان الصبر منا سجية ... بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما
نفلق هاماً من اناس اعزة ... علينا وهم كانوا اعق واظلما
ولما رأيت الود ليس بنافعي ... عمدت الى الامر الذي كان احزما

ان مقارنة النصين معاً تظهر ان ابا تمام قد غيّر شبه الجملة (موالي موالينا) بشبه جملة اخرى (مواليكم) ولكي نتبين الدلالات العميقة وراء هذا التغيير ، لابد ان نتعرف على معاني لفظ (مولى) في العربية ، قال المرزوقي : (انما قسم الموالي هذه القسمة ، لان المولى له مواضع في استعمالهم منها ؛ المولى في الدين وهو الولي ... ومنها العصبة وبنو العم ، وهو الذي سماه الشاعر مولى الولادة ومنها ؛ الحليف وهو من انظم اليك واعتز بعزك وامتنع بمنعك وهو الذي سماه ، مولى اليمين) [٦٤] .

ان رواية البيت في شعر الشاعر هي :

موالي موالينا الولادة منهم ... ومولى اليمين حابساً متقسما

فقد جعل الشاعر بني العم من موالي مواليهم لانه قد ذكر شبه الجملة (منهم) متأخرة عن (مولى موالينا) ولا يخفى ان حرف الجر (من) هنا للتبعيض ، فيكون المعنى ، ان (موالي الولادة) هم من (موالي موالينا) وليس من موالينا دون واسطة فقد جعل الشاعر بني العم في مكان ابعد بمنزلتين عن قومه والحق ان يكونوا ابعد عنهم بمنزلة واحدة ، وهذا ما تداركه ابو تمام في روايته للبيت بالشكل الاتي :

مواليكم مولى الولادة منهم ... ومولى اليمين حابساً متقسما

فقد جمع الموالي كلهم بلفظ واحد متصلاً بضمير الجماعة المخاطب مجتزءاً منهم (مولى الولادة) أي بنو عم الشاعر ، وبهذا يكون معنى البيت مستقيماً ، فالموالي منهم بنو العم ومنهم الاحلاف .. ومن تغييرات ابي تمام الاخرى في النص قول الشاعر :

لدن غدوة حتى اتى الليل ما ترى من الخيل الا خارجياً مسوما

وقد رواه ابو تمام :

من الصبح حتى تغرب الشمس لا ترى من الخيل الا خارجياً مسوما

ان نظرة فاحصة تظهر ان ابا تمام كان بارعاً في تحديد زمن المعركة الذي يبدأ من الصبح حتى غروب الشمس ، وهذا التحديد ليس تحديداً عشوائياً بل تحديد نابع من تجربة كان ابو تمام قد عاشها في وصف المعارك التي خاضها القواد والامراء والخلفاء في عصر بني العباس فهو يعرف بان زمن المعركة يبدأ من الصبح وحتى غروب الشمس أي ان المعارك غالباً ما تكون نهاراً وليس ليلاً وهذه صورة اكثر واقعية من صورة الشاعر التي يبدأها من الغداة حتى مجيء الليل ولا شك ان لفظي (الغداة) و (الليل) لفظان فضفاضان ، ويبدو ان سلاسة الالفاظ وسهولتها على السمع كان لهما اثر في تغيير ابي تمام فالبيت عندما يكون شطره :

- من الصبح حتى تغرب الشمس لا ترى

اجمل وقعاً واكثر سلاسة من الشطر :

- لدن غدوة حتى اتى الليل ما ترى

وقد تدخل ابو تمام في تغيير النصوص الشعرية التي كان يرويها في الحماسة ، لكنه تغيير يخدم النص اكثر مما يحط من شأنه ، فمن هذه النصوص ، قول الاحوص بن محمد الانصاري [٦٥] :

ما من مصيبة نكبةٍ امنى بهـا الا تعظمني وترفع شأنـــي
وتزول حين تزول عن متخمطٍ تخشى بوادره على الاقـــران
اني اذا خفي الرجال رأيتنـــي كالشمس لا تخفى بكل مكـــان

وقد ورد في الحماسة [٦٦] :

ما تعتريني من خطوب ملمة الا تشرفني وتعظم شانـــي
فاذا تزول تزول عن متخمطٍ تخشى بوادره لدى الاقران
اني اذا خفي الرجال وجدتني كالشمس لا تخفى بكل مكان

وقول ابي الطمحان القيني [٦٧] :

اذا راح اصحابي تفيض دموعهم وخليت في لحد عليّ صفائحي

وقد ورد في الحماسة [٦٨] :

اذا راح اصحابي تفيض دموعهم وغودرت في لحد عليّ صفائحي

وقول جران العود [٦٩] :

ايا كبداً كادت عشية غرّب من البين اثر الظاعنين تصدع

وقد ورد في الحماسة [٧٠] :

ايا كبداً كادت عشية غرّب من الشوق اثر الظاعنين تصدع

وقول قيس بن الخطيم [٧١] :

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائماً من خلفها ما وراءها
يهون عليّ ان ترد جراحـــه عيون الاواسي اذ حمدت بلاءها

وورد في الحماسة [٧٢] :

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائماً من خلفها ما وراءها

يهون عليّ ان ترد جراحهـا عيون الاواسي اذ حمدت بلاءها

وقول ابن الدمينة (٧٣) :

وفيض غروب العين بالدمع كلما بدا علم من ارضكم لم يكن يبدو

وورد في الحماسة (٧٤) :

وفيض دموع العين يا مي كلما بدا علم من ارضكم لم يكن يبدو

وهناك تغييرات اخرى في نصوص شعرية كثيرة تدلل على ان ابا تمام كان يمتلك ذهنيـة ذات عمق كبير ، تحلل وتربط بين جزيئات الاشياء التي لا تبدو للعيان ، كما تدل علـى اتساع افقه اللغوي والنقدي وشدة احساسه بالدلالات العميقة للالفاظ وهـذه دلالـة علـى امتلاكه روحاً قد تشربت حب العربية واسرارها وبلاغتها ، كل تلك الشواهد تقـف ادلـة بوجه المدعين والمشككين بعروبة ابي تمام وبهذا الجهد المتواضع نتمنى ان نكون امطنـا اللثام عن شيء مهم في ثقافة ابي تمام النقدية ...

ومن الله التوفيق ...

الهوامـــش

(١) قال الامدي في الموازنة ، ٥١ " كان ابو تمام مشتهراً بالشعر ، مشغوفاً مدة عمره بتخيره ودراسته ، وله كتب اختيارات فيه مشهورة معروفة ، فمنها ١ - الاختيار القبائلي الاكبر ، اختار فيه من كل [قبيل] قصيدة ، وقد مر على يدي هذا الاختيار ، ٢- ومنها

اختيار اخر ترجمته القبائلي ، اختار فيه قطعاً من محاسن اشعار القبائل ، ولم يورد فيه كبير شيء للمشهورين ، ٣ - ومنها : الاختيار ، الذي تلقط فيه محاسن شعر الجاهلية والاسلام ، واخذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى الى ابراهيم بن هرمة ، وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول ، ٤- ومنها اختيار تلقط فيه اشياء من الشعراء المقلين والشعراء المغمورين غير المشهورين ، وبوبه ابواباً ، وصدره بما قيل في الشجاعة وهو اشهر اختياراته ، واكثرها في ايدي الناس ويلقب بالحماسة ، ٥ - ومنها اختيار المقطعات ، وهو مبوب على ترتيب الحماسة ، الا انه يذكر فيه اشعار المشهورين وغيرهم من القدماء والمتأخرين وصدره بذكر الغزل وقد قرأت هذا الاختيار وتلقطت منه نتفاً وابياتاً كثيرة ، وليس بمشهور شهرة غيره ، ٦ - ومنها اختيار مجرد في اشعار المحدثين وهو موجود في ايدي الناس وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر ، ولانه اشتغل به وجعله وكده واقتصر من كل الاداب والعلوم عليه ، فانه ما شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث الا قرأه واطلع عليه ، ولهذا اقول : ان الذي خفي [من] سرقاته اكثر مما قام على كثرتها " ٥٢ .

(٢) شرح الحماسة ، المرزوقي ١ / ٨ .

(٣) من حديث الشعر والنثر ، ٩٨ .

(٤) دراسة في حماسة ابي تمام ، الاستاذ علي النجدي ناصف ، (١٠ - ٣٦) ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

(٥) حماسة ابي تمام وشروحها ، (دراسة وتحليل) ، د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، ٢٥ ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

(٦) اسس النقد الادبي عند العرب ، د. احمد بدوي ، ٤٤ ، نقلاً عن " دراسات في الادب الاسلامي والاموي ، (الشعراء نقاداً) ، د. عبد الجبار المطلبي ، ١٦ .

(٧) المصدر نفسه ، ٤٤ .

(٨) دراسات في الادب الاسلامي والاموي ، (الشعراء نقاداً) ، د. عبد الجبار المطلبي ، ١٦ ، بغداد ، ١٩٨٦ .

(٩) وفيات الاعيان ، ابن خلكان ، ٢ / ١٢ .

(١٠) اخبار ابي تمام ، ١٦٧ .

(١١) الموازنة بين البحتري وابي تمام ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ٥١ .

(١٢) شرح الحماسة ، المرزوقي ١ / ١٠ .

(١٣) بلغ عدد شروح الحماسة اكثر من عشرين شرحاً .

(١٤) بلغ عدد التعليقات والتفسيرات عليها والاختيارات منها اكثر من عشر مؤلفات .

(١٥) شرح الحماسة ١ / ١٧ .

(١٦) المصدر نفسه ، ١ / ٣ .

(١٧) اخبار ابي تمام ، ١٨٩ .

(١٨) المصدر نفسه ، ١١٨ .

(١٩) اخبار ابي تمام ، ١١٨ .

(٢٠) ينظر : " الشعراء ونقد الشعر منذ الجاهلية حتى نهاية القرن الرابع الهجري " ، د. هند حسين طه ، ١١٣ ، بغداد ، ١٩٨٦ .

(٢١) اخبار ابي تمام ، ١١٤ .

(٢٢) طبقات الشعراء ، ٢٨٤ .

(٢٣) خاتمة القصيدة ومحتواها النقدي عند ابي تمام ، الاستاذ د. مصطفى عبد اللطيف،بحث مقبول للنشر في مجلة كلية الاداب/جامعة البصرة،١٩٩٨.

(٢٤) ينظر : مقدمة محققي الحماسة بشرح المرزوقي ، ٦ .

(٢٥) شرح الحماسة ، مقدمة المرزوقي ، ٥ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ٨٣ .

(٢٧) المصدر نفسه ، (١٤ - ١٥) .

(٢٨) آفاق في الادب والنقد ، د. عناد غزوان ، ٦٨ .

(٢٩) ينظر : حماسة ابي تمام وشروحها ، د. عبد الله عسيلان ، ٣٤ ، يوجد جدول يبين عدد المقطوعات والابيات وتقسيمها على الابواب .

(٣٠) المصدر نفسه ، (٣٦ - ٣٧) .

(٣١) شرح الحماسة ، ١٤٠ / ٥١ .

(٣٢) شرح الحماسة ، ١ / ٥١ .

(٣٣) شرح الحماسة ، ١ / ٢٧٧ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ١ / ٢٧٨ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ١ / ٢٨٥ .

(٣٦) شرح الحماسة ، ١ / ٧٥٣ .

(٣٧) يقصد ابيات امرأة يقال لها " ام ثواب " في ابن لها عقها .

(٣٨) شرح الحماسة ، ١ / ٧٥٦ .

(٣٩) شرح الحماسة ، ١ / ٥٢٣ .

(٤٠) شرح الحماسة ، ١ / ٣٦ وكذلك قصيدة زياد بن حمل الواردة في باب النسيب والتي بلغت ثلاثة واربعين بيتاً موزعة على الذم والمدح والشوق والفخر والغزل .

(٤١) شرح الحماسة ، ٢ / ١٧٦٦ .

(٤٢) شرح الحماسة ، ٢ / ١٧٦٧ .

(٤٣) المصدر نفسه ، ٢ / ١٤٩٤ .

(٤٤) شرح الحماسة ، (مقدمة الشارح) ، ١ / ٤ .

(٤٥) الموشح ، ٣٩٢ .

(٤٦) طبقات الشعراء ، ٢٣٥ .

(*) قال عبد الله بن المعتز في كتابه البديع : (ان بشاراً وابا نؤاس ومسلم بن الوليد ومن تقليهم ، لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم ، ثم ان الطائي تفرع فيه واكثر منه) ص١ .

(**) يمكن اضافة سببين اخرين يفسران استبعاد ابي تمام لهذين الشاعرين من الحماسة ؛ اولهما : ان ابا تمام قد افرد للشعراء المحدثين اختياراً كاملاً ولكنه لم يصل الينا وهذا ما نص عليه الامدي في كتاب الموازنة ، (٥١ - ٥٢) عندما قال : " .. ومنها اختيار مجرد في اشعار المحدثين " وثانيهما : ان بشاراً وابا نؤاس قد تهجما على الحياة العربية البدوية في اشعارهما وابو تمام كان يدرك ذلك فاستبعدهما بدافع شعوره القومي لاسيما وان الموضوع العام للحماسة هو تمجيد العادات والقيم العربية .

(٤٧) شرح الحماسة ، مقدمة المرزوقي ، ١ / ١٤ .

(٤٨) شرح الحماسة ، مقدمة المرزوقي ، ١ / ١٠ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ١ / ٤ .

(٥٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب ، ٤٠١ .

(٥١) شرح الحماسة ، ١ / ١٦ .

(٥٢) من حديث الشعر والنثر ، د. طه حسين ، (٩٦ - ٩٨) .

(٥٣) ديوان الفرزدق ، شرحه ، ايليا الحاوي ، ١ / ٢٧٢ .

(٥٤) شرح الحماسة ، ١ / ٦٧٦ .

(٥٥) لم تكن هذه الابيات موجودة في الديوان .

(٥٦) شرح الحماسة ، ١ / ٦٧٩ .

(٥٧) شرح الحماسة ، ٦٧٦ .

(٥٨) المصدر نفسه ، ١ / ٦٧٦ .

(٥٩) ديوانه ، القصيدة الاولى .

(٦٠) شرح الحماسة ، ٢ / ١٣٠٠ .

(٦١) شرح الحماسة ، ٢ / ١٣٠٠ .

(٦٢) شعر الحصين ، جمع وتحقيق ، د. مهدي عبيد جاسم ، المـورد ، ٣ / ١٩٨٨ / ١٢٢ .

(٦٣) شرح الحماسة ، ١ / ٣٨٦ .

(٦٤) المصدر نفسه ، ١ / ٣٨٧ .

(٦٥) الاحوص بن محمد الانصاري،حياته وشعره،محمد علي سعد،٢٧٢ .

(٦٦) شرح الحماسة ، ١/ ٢٢٢ .

(٦٧) ابو الطحان القيني،حياته وما تبقى من شعره ، محمد نايف الدليمي ، مجلة المورد ، ٣ / ١٩٨٨

(٦٨) شرح الحماسة ، ٢ / ١٢٦٦ .

(٦٩) ديوان جران العود النميري،جمع وتحقيق د.نوري حمودي القيسي ، ٧٤ .

(٧٠) شرح الحماسة ، ٢ / ١٢٢٧ .

(٧١) ديوانه برواية ابن السكيت حققه ، د. ناصر الدين الاسد ، ص٨٨ .

(٧٢) شرح الحماسة ، ١ / ١٨٤ .

(٧٣) ديوانه ، صنعه ابو العباس ثعلب ومحمد بن حبيب ، تح / احمد راتب النفـاخ ، ١٢٠ .

(٧٤) شرح الحماسة ، ٢ / ١٣٣٣ .

المصـــــادر

١ - ابو الطمحان القيني ، حياته وما تبقى من شعره ، محمد نايف الدليمي ، مجلة المورد بغداد ، ٣ / ١٩٨٨.

٢ - الاحوص بن محمد الانصاري ، حياته وما تبقى من شعره ، محمد علي سعد ، بيروت ، ١٩٨٢ .

٣ - اخبار ابي تمام ، ابو بكر الصولي ، تحقيق ، خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الاسلام الهندي ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٤ - آفاق في الادب والنقد ، د. عناد غزوان ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٠ .

٥ - تاريخ النقد الادبي عند العرب ، د. احسان عباس ، عمان ، ١٩٨٦ .

٦ - حماسة ابي تمام وشروحها (دراسة وتحليل) ، د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

٧ - خاتمة القصيدة ومحتواها النقدي عند ابي تمام ، الاستاذ د. مصطفى عبد اللطيف ، بحث مقبول للنشر في مجلة كلية الاداب، جامعة البصرة ،١٩٩٨ .

٨ - دراسات في الادب الاسلامي والاموي ، (الشعراء نقاداً) ، د. عبد الجبار المطلبي ، بغداد ، ١٩٨٦ .

٩ - دراسة في حماسة ابي تمام ، الاستاذ علي النجدي ناصف ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

١٠ - ديوان ابن الدمينة ، صنعة ابي العباس ثعلب ، ومحمد بن حبيب تحقيق احمد راتب النفاخ ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة ١٣٧٩ هـ .

١١ - ديوان جران العود النميري ، جمع وتحقيق د. نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨١ .

١٢ - ديوان الفرزدق ، شرح وتعليق ايليا حاوي ، دار الكتاب اللباني ، بيروت ، ١٩٨٣ .

١٣ - ديوان قيس بن الخطيم ، حققه ، ناصر الدين الاسد ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

١٤ - ديوان يزيد بن مفرغ الحميري ، جمع وتحقيق د. عبد القدوس احسان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٥ .

١٥ - شرح ديوان الحماسة لابي علي احمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، نشره احمد امين وعبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٥١ .

١٦ - شعر الحصين ، جمع وتحقيق ، د. مهدي عبيد جاسم ، مجلة المورد ، بغداد ، ٣ / ١٩٨٨ .

١٧ - الشعراء ونقد الشعر (منذ الجاهلية حتى نهاية القرن الرابع الهجري) ، د. هند حسين طه ، بغداد ، ١٩٨٦ .

١٨ -طبقات الشعراء المحدثين ، عبد الله بن المعتز ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

١٩ - كتاب البديع، عبد الله بن المعتز،تحقيق كراتشكوفسكي،لندن ، ١٩٣٥ .

٢٠ - من حديث الشعر والنثر ، د. طه حسين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦١ .

٢١ - الموازنة بين ابي تمام والبحتري ، ابو بشر الامدي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العلمية ، بيروت ، د. ت .

٢٢ - الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة انواع من صناعة الشعر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٢٣ - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، لابي العباس شمس الدين بن خلكان ، تحقيق : د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٢ .